

المدارس العلمية التراثية في بغداد

دراسة في الجوانب العلمية والفكرية

د. هدى ناجي عبيد صباح* 

المقدمة:

ارتبط اسم مدينة بغداد بقوة الحضارة العربية الإسلامية، وكان لهذه المدينة أثر كبير في القرون الوسطى في ميدان العلم والثقافة والفنون والازدهار الحضاري وكانت لبغداد أهمية كبيرة في الفكر العربي الإسلامي ولاسيما في ميادين الفقه وعلم الكلام والفلسفة والآداب.

والمدارس التي انشئت في بغداد منذ منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي مثل المدرسة النظامية التي افتتحت للتدريس سنة «٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م» ومدرسة مشهد أبي حنيفة التي باشرت التدريس في السنة نفسها التي بدأت بها المدرسة النظامية وأنشئت بعدهما مدارس عديدة من أهمها المدرسة المستنصرية التي أسسها الخليفة المستنصر بالله العباسي وأفتتحت للتدريس سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م.^(١) ومن المعلوم أنّ مدارس بغداد ولاسيما المدرسة النظامية والمستنصرية كان يؤمها عدد كبير من طلبة العلم الوافدين من بلدان المشرق والمغرب ولا بدّ أنّ أولئك بحكم بقائهم في بغداد تأثروا بعادات البغداديين من مآكل ومشرب وملبس وبهذا تكون تلك المدارس البغدادية قد أثرت في أخلاق الطلاب الوافدين الذين صاروا ينقلون تلك العادات والأخلاق بعد تخرجهم من تلك المدارس كما يتحدثون الى ذويهم في بلدانهم عن حضارة بغداد وتقدمها العلمي.^(٢)





كانت المدارس الجامعة بيوتا لاشياخ العلم، ومرادا لتلاميذهم، وكانت كل مدرسة بمنزلة جامعة تتألف من عدة كليات.

وأول من نعلمه أمر ببناء مدرسة مستقلة عن الجوامع في بغداد أحمد بن طلحة الموفق الملقب بالمعتضد «ت ٢٨٩ هـ» فإنه عندما وضع الخطة لإنشاء قصره في الشماسية استزاد المهندسين في الذرع فسأل عن ذلك فذكر «أنه يريد أن يبني فيه دورا ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب

من مذاهب العلوم النظرية والعملية، ويجري عليهم الارزاق السنوية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيساً ما يختاره فيأخذ عنه»^(٣) وفي أواخر العصر الثالث وأوائل الرابع أنشئ معهد للطب أطلق عليه اسم البيمارستان، وكان الطبيب الكبير أبو بكر الرازي «ت ٣٢٠ هـ» يدرس فيه الطب، وقد أنشأ عضد الدولة بن بويه بيمارستانا آخر على أنقاض قصر الخلد أطلق الناس عليه اسم البيمارستان العضدي، وأطلقوا على الذي قبله اسم البيمارستان العتيق، والبيمارستان العتيق يعد أول مدرسة طبية نظرية وعملية أنشئت

في بغداد، وكلا البيمارستانين في الجانب الغربي، وقال ابن جبير: «وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، ويتفقداه الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه، وبين أيديهم قومة يتولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية»^(٤)

والظاهر أنّ هذا البيمارستان بقي الى ما بعد سقوط بغداد بيد المغول، فقد ذكره ابن بطوطة في سنة ٧٢٧ هـ قائلاً: «وهو قصر كبير خربُ بقيت منه الآثار»^(٥) ولم يبق اليوم لهذا البناء أثر يهتدى به الى مكانه.

والمدارس القديمة في بغداد كلها متصلة بالمساجد، وهي كثيرة تدرس فيها العلوم الشرعية واللسانية وبعض العلوم الكونية، وقد يكون للمدرسة الواحدة منها اكثر من مدرس واحد، ومعظم المدارس القديمة في بغداد دينية ومناهجها تابعة للتقاليد القديمة عدا دار العلوم الدينية والعربية فانها مؤسسة

على النمط الحديث, وتدرس فيها مع العلوم الدينية والعلوم اللسانية علوم اخرى لايمكن أن يستغني عنها علماء الدين في هذا العصر مثل علم الاجتماع وعلم النفس وأصول التعليم وغيرها, واكثر طلابها يعيشون على نفقة مديرية الاوقاف العامة, وهذه المدرسة واقعة الى جوار مشهد الإمام أبي حنيفة «رضي الله عنه».^(٦)

المدرسة النظامية:

شهدت بغداد في العصر العباسي نهضة تعليمية بدأت بشكل منظم وبرعاية الدولة سنة «٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م» عندما بدأ الوزير نظام الملك السلجوقي ببناء المدرسة المعروفة بالنظامية التي افتتحت للتدريس سنة «٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م» واحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً, وكانت المدرسة النظامية ولاسيما بالشافعية, وكان من شروطها ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية أصلاً وفرعاً, ودرس في هذه المدرسة كبار العلماء والفقهاء مثل أبي اسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في وقته ببغداد وأبي نصر بن الصباغ وأبي حامد الغزالي وغيرهم

من كبار فقهاء الشافعية في العلم الاسلامي, ومن النحويين والادباء الذين درسوا في هذه المدرسة العتيدة أبو زكريا الخطيب التبريزي وعلي بن محمد الفصيح.^(٧)

وكان تعيين المدرسين في النظامية من صلاحية الوزير, وكان هذا واضحا عند تعيين المدرس الأول أبي اسحاق الشيرازي في النظامية بأمر الوزير نظام الملك, وفي تعيين الغزالي مدرسا في نظامية بغداد.^(٨)

وللمدرسة مكتبة فخمة فيها من الكتب النفيسة, وكان للمكتبة خازن ومشرف ومناولون للكتب, وذكر ابن الاثير أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي جدد خزانة كتب المدرسة النظامية ونقل إليها ألوفاً من الكتب الحسنة.^(٩) وللأسف أن هذه الخزانة العظيمة اندثرت وانمحت من الوجود وضاعت جميع كتبها كما انمحت آثار هذه المدرسة العظيمة التي هي أولى المدارس في الإسلام.

وممن زار المدرسة النظامية الرحالة العربي ابن جبير وقال: «والمدارس ببغداد نحو الثلاثين وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها واعظمها واشهرها النظامية».^(١٠)





كما حضر ابن جبير درسا من دروس المدرسة النظامية ووصف كيفية الدرس والقاء المدرس لمحاضراته والاستئلة التي يوجهها الطلبة.

وذكر ابن بطوطة المتوفى سنة « ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م » الذي زار المدرسة النظامية وقال: «بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب واعظم اسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسناها».^(١١)

ومن اشهر طلاب المدرسة النظامية:

أولاً: علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة « ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م » دخل بغداد ولزم التفقه وسماع الدروس بالمدرسة النظامية ومن اشهر كتبه تاريخ دمشق.^(١٢)

ثانياً: العماد الاصفهاني: أبو عبد الله محمد بن صفى الدين الكاتب، تعلم بالنظامية على يد الشيخ ابن منصور سعيد مدرس النظامية وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وغيره من اعلام المدرسين في النظامية، ومن أشهر كتبه: جريدة القصر وجريدة العصر وكتاب الفيح القسي في الفتح

القدس، وكانت له منزلة رفيعة عند السلطان نور الدين زنكي وصار صاحب سره وكان من أشهر كتّاب صلاح الدين الايوبي وأصبح من جملة الصدور المعدودين والامثال المشهورين يضا هي الوزراء، توفي العماد الأصفهاني سنة « ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م » بدمشق ودفن في مقابر الصوفية.^(١٣)

ثالثاً: ومن طلاب المدرسة النابهين، بهاء الدين بن شداد، وتلمذ على يد الشيخ رضي الدين القزويني شيخ الشافعية ببغداد ومن ثم صار من رجالات السلطان صلاح الدين الايوبي وعينه السلطان قاضيا على حلب، ومن كتبه سيرة صلاح الدين بن ايوب واشتغل معيدا بالمدرسة النظامية، وتوفي بحلب سنة اثنتين وثلاثين وستمئة للهجرة.^(١٤)

ولما أنشئت المدرسة النظامية في بغداد أنشئ فيها كرسي لتدريس الأدب عهد به الى أبي زكريا الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) وخلفه على ذلك علي بن أبي زيد الفصيح وتلاه أبو منصور الجواليقي شارح كتاب ادب الكاتب.^(١٥) وفي اوائل القرن السادس الهجري اتسع مفهوم الادب عند العلماء فاطلقوا على العلوم

قصيدة على لسان هذه المدرسة جاء في مطلعها: (١٩)

قوِّض الدهر بالخراب عمادي ورمتني يدها بالأنكاد

المدرسة المستنصرية

انشأ هذه المدرسة الخليفة العباسي المستنصر بالله وتكامل بناؤها سنة «٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م» فكانت آية فنية ما بني على وجه الارض أحسن منها، ويعد هذا البناء الذي طاول الزمن والذي لايزال عظيما باقيا أثرا من آثار تلك الحضارة الزاهية ولا تزال المستنصرية من أجمل مباني بغداد وأعظمها أثرا على مر الزمن. (٢٠)

وتقع المستنصرية في الجانب الشرقي من بغداد على نهر دجلة ووصفها المؤرخون بصفات ممتازة، قال فيها الإربلي: وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء، وأنها جاءت في نهاية الحسن، وهي أعظم من أن توصف وشهرتها تغني عن وصفها. (٢١)

وجعل الخليفة المستنصر مدرسته ذات نظام داخلي أي أنّ الطالب كان يدرس ويعيش في المدرسة وأنّ إدارة المدرسة كانت تنفق عليه

اللسانية من النحو واللغة وغيرهما اسم علوم الادب، قال أبو القاسم الزمخشري «ت ٥٣٨ هـ»: «علوم الادب يحتز بها عن الخلل في كلام العرب لفظا وكتابة». (١٦)

ومن الذين درسوا في النظامية عدد كبير من الذين تفقهوا في هذه المدرسة العريقة من الذين اشتهروا في حياتهم الثقافية والسياسية والاجتماعية، وزالت هذه المدرسة العظيمة نتيجة اهمال من تولى أمرها واستحوذ بعضهم على أوقافها كما كان لحوادث الحريق والغرق الاثر الفاعل في ضعف جوانب هذه المدرسة ولاسيما أيام ضعف الخلافة العباسية ودخول المغول بغداد، وبمرور الايام وتوالي الاعوام اندرست آثارها وطمست أخبارها وانمحى ذلك المكان الذي كان يشع بأنوار العلم والمعرفة وكان ينبوعا من ينابيع الثقافة التي كانت في خدمة المجتمع الانساني. (١٧)

قال المحقق السيد محمود شكري الألوسي في كتابه تأريخ مساجد بغداد: «لم ندرك نحن ولا آباؤنا أثرا من آثارها .. ولم يبق منها سوى بقايا مئذنة بقيت تشكو بلسان حالها ..». (١٨)

وقد نظم شاعر العصر الأستاذ الرصافي





الطعام والملابس، ويعطى ديناران لكل طالب في كل شهر غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت. (٢٢)

وجعلت المدرسة للمذاهب الأربعة وحدد عدد الطلبة، فطلبة الفقه الحنفي كان عددهم ٦٢ طالبا ومثلهم طلبة الفقه الشافعي والحنبلي والمالكي، وجعل لكل طائفة مدرس وأربعة معيدين.

وأُنشئت معاهد ملحقة بالمدرسة مثل دار قرآن المستنصرية وشرط أن يكون فيها ثلاثون صبيا أيتاما ويتكفل بهم شيخ يلقنهم القرآن الكريم ومعيد يشرف على تحفيظهم وهناك دار الحديث النبوي ويكون عدد طلابها عشرة يقوم على تعليمهم شيخ عالي الاسناد ويعاونه قارئان، كما ألحق المؤسس بالمدرسة مدرسة للطب، وجعل فيها طبيب حاذق ماهر واثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب، وألحق بمدرسة الطب صيدلية لصرف الدواء للمرضى وأشار ابن العبري الى وجود مخزن في المستنصرية به أنواع الاشربة والادوية. (٢٣)

وتعد المدرسة المستنصرية حدثا كبيرا في

القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، لانها خطوة كبيرة في سبيل تقدم التعليم ورقبه كما يعد نظام المدرسة من أحسن النظم المتبعة في مدارس ذلك العصر، وقد غدا ذلك النظام مثالا يحتذى به في العراق وخارجه. (٢٤) لقد اعتنى الخليفة والمشرفون على الدراسة باختيار المدرسين الذين يجب أن تتوافر فيهم شروط عديدة منها الاخلاق الحسنة والسمعة الطبية والعلم الوافر والصحة في المذهب والاعتقاد وخصص المؤسس لكل مدرس في المدرسة راتبا قدره اثنا عشر دينارا وأن تصرف له حاجته من الطعام وقدرها في كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها، وكان لكل مدرس أربعة من المعيين وخصص الواقف في شروط المدرسة لكل معيد في كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفتان طببخ وفي كل شهر ثلاثة دنانير. (٢٥)

وكان المدرس في المستنصرية يجلس على كرسي عند التدريس ويلبس ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان.

ولم يكن هناك على ما يبدو نظام الإحالة

الى المعاش في العصر العباسي فقد ذكر ابن الفوطي أنّ الشيخ كمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف المعروف بابن وريدة البغدادي كان يطيل الجلوس مع طلاب العلم ولايضجر وأنّه نيف على التسعين.^(٢٦)

وكان طلبة المستنصرية ينقسمون الى فئتين، الطلاب الصغار وهم طلبة دار القرآن وهم من الصبيان، وهم يعيشون في المدرسة في مكان مستقل ويدرسون في مكان غير قريب من المكان الذي يدرس فيه الطلبة الكبار الذين هم الفئة الاخرى من طلبة المدرسة والذين يدرسون الفقه والنحو والطب والحديث.^(٢٧)

وهناك في المدرسة ٧٨ غرفة، ٣٩ منها في الطابق الارضي ومثلها في الطابق العلوي مخصصة لسكنى الطلبة ويبدو أنّ كل غرفة تتسع لأكثر من أربعة من الطلبة وهناك عدد من القاعات المخصصة للتدريس.^(٢٨)

يتوسط بناء المدرسة صحن فسيح مستطيل الشكل طوله ٤٠، ٦٢ وعرضه ٤٠، ٢٧ فتكون المساحة ٧٦، ١٧٠٩ م^٢.

وقد روعي في التصميم أن تكون المرافق من الغرف والاواوين والاروقة والمسجد والحمام

وخزانة الكتب تحيط كلها بالصحن، وفي الصحن من ناحيتيه الشمالية والجنوبية تجويفان كبيران يسميهما الاثاريون بالايوان الشمالي والايوان الجنوبي، ويتوسط الضلع الغربي المطل على نهر دجلة مسجد المدرسة وتبلغ مساحته ١٠، ١٥٥ م. وكان للمدرسة مطبخ يطبخ فيه للطلبة، وقد بلغ ريع ماوقف عليها من العقارات والمسقفات أكثر من سبعين ألف مثقال سنويا.^(٢٩)

وكانت تزين المدرسة ساعة عجيبة قام بصنعها نور الدين علي بن تغلب الساعاتي.

وزخارف المدرسة المستنصرية تمثل الابداع الفني الذي وصل اليه الفن العراقي في القرن السابع الهجري، وهي قطع من الآجر المهندسة بأشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت في الحجم والعمق، وكان للمدرسة ناظر ومشرف وكاتب

وخازن للكتب ومناولون وفراشون وبوابون وطباخون وغيرهم من العاملين في المدرسة.^(٣٠) وكان لزيارة العلماء للمدارس البغدادية في العصر العباسي أثر في نقل الكثير من نظم التعليم البغدادية الى مدنهم البعيدة ومنهم



العالم جمال الدين ابن الشريشي محمد بن أحمد البكري الاندلسي الشريشي المالكي المولود في شريش سنة « ٦٠١ هـ » سمع بالاسكندرية من محمد بن عمار وفي بغداد من أبي الحسن القطيعي شيخ دار الحديث في المستنصرية ومحمد بن السباك مدرس المستنصرية، ودخل الديار المصرية ودرس في الفاضلية وتخرج عليه جماعة ثم قدم الى القدس وأقام فيها مدة ثم أتى دمشق وأخذ الناس عنه وتوفي بها سنة ٦٨٥ هـ. (٣١)

ان يبادر المصريون الى بناء مدارس جديدة تأخذ بنظام المدرسة المستنصرية بعد ان كانت مدارسهم تخصص لتدريس فقه مذهب واحد كالمدرسة القمحية التي كانت ولاسيما بالفقه المالكي ومدرسة ابن زين النجار التي كانت خاصة للشافعية والمدرسة السيوفية خاصة بالحنفية. (٣٢)

حتى بادر الصالح أيوب ابن الملك الكامل الى انشاء المدرسة الصالحية على غرار المستنصرية وذكر المقرئزي أنّ السلطان نجم الدين أيوب أول من عمل بديار مصر دروسا اربعة في مكان. (٣٤)

أما منهجها التعليمي فهو شبيه بمنهج المدرسة النظامية، واستمرت المدرسة المستنصرية في اداء مهمتها التعليمية والثقافية رغم النكبات التي وقعت عليها من الغزو المغولي سنة «٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م»، وسيطرة الجلائريين وهم من العنصر المغولي سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٢٧ م ثم قيام دولة أجنبية غربية كدولة الخروف الاسود سنة « ٨١٤ - ٨٦٩ هـ / ١٤١٠ - ١٤٦٥ م » ودولة الخروف الأبيض سنة « ٨٦٩ - ٩١٣ هـ / ١٤٦٥ - ١٥٠٨ م »

هذا وكانت بغداد مركز الحركة والانتشار لمعظم الصلات الثقافية بين الشرق والغرب التي يقوم بها طلبة العلم والعلماء حيث يقومون برحلات علمية الى بغداد ليتزودوا من المعرفة ويعودوا الى بلادهم لينقلوا ما تأثروا به من الاداب والعلوم وشتى المعارف ببغداد. حتى أنّ بغداد أثرت في النظم التعليمية الاسلامية، فالمدرسة المستنصرية هي أول مدرسة تؤسس لتدريس فقه المذاهب الاربعة وأنها تبادر لاول مرة الى الحاق مدرسة لتعليم الطب ومعهد لتدريس القرآن الكريم. (٣٢)

وكان لتأسيس المستنصرية في بغداد أثره في

ثمّ اصبحت بغداد تحت السيطرة الصفوية ثمّ سيطرة العثمانيين حتى سنة ١٩١٧ م.^(٣٥) واخذت هذه الدول بعدم العناية بالمدرسة وانقطعت أخبارها بحدود «٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م»، وبدأ الاقتطاع من المدرسة المستنصرية في عهد محمد جلبي كاتب الديوان وكاتم الاسرار عند محمد بن أحمد الطويل والي بغداد سنة «١٠١٧ هـ / ١٦٠٨ م» فقد بنى هذا زاوية للدراويش المولوية سميت هذه الزاوية بالمولاخانة وهي جزء من المدرسة المستنصرية.^(٣٦)

المدرسة الشرايية

هي المدرسة التي بناها شرف الدين اقبال الشرايبي وزير المستنصر بالله في بغداد وكانت تسمى المدرسة الشرايية الاقبالية او الشرفية، وتقع بين باب المعظم ومحلة الميدان الحالية ونهر دجلة، ومن هنا يمكن القول انّ المدرسة الشرايية يحتمل ان تكون هي البناية المعروفة بالقصر العباسي الواقع الى جنوب وزارة الدفاع الان، ويرى الدكتور ناجي معروف وجود تشابه كبير بين تصميم هذه البناية وبين مدرستين قائمتين ببغداد هما المستنصرية والمرجانية.^(٣٩)

إنّ بناء الاواوين وطراز بيوت الطلبة والدهاليز والازاج والردهات الكبرى وبيوت الطلبة وحن المدرسة والرحاب والمسجد وشكل العقود والاقواس والكوي وطراز التسقيف وتفصيل الزخرفة الاجرية في الجدران وهكذا نرى المدرسة أسيء استعمالها واقتطعت اجزاؤها وانتهكت حرمتها واستحوذ الطامعون على أوقافها واصبحت دارا للمكس ومكانا للعمال والحمالين والجهلاء بعد أن كانت مأوى للطلاب والعلماء والاساتذة الذين يشار اليهم بالبنان. فرثاها الشعراء المعاصرون كالرصافي و الزهاوي:^(٣٧) ولما قامت الحكومة العراقية سنة «١٩٢١» بدأ العراقيون يطالبون بإعادة حقوق هذه المدرسة التاريخية، فأخذت يد الاصلاح تعمل





والسقوف والابواب، كلها تؤكد كون البناية هذه كانت مدرسة، وان كانت تتبع طرازاً خاصاً في التخطيط والتصميم، ففي هذه المدرسة ايوان واحد بديع الزخارف الاجرية، مفتوح الواجهة من الجهة الشمالية على صحن المدرسة، وارتفاعه بارتفاع الطابقين فيها، ويحيط بالصحن الكبير عدد من الحجرات الصغيرة، يحميها رواق، سقف مكون من مقرنصات آجرية بديعة التكوين، ودعامات تحمل أقواساً مدببة، ويقابل الايوان الكبير مسجد المدرسة، وان مدخل المدرسة وواجهتها الشمالية مطلة على دجلة، امامه ساحة ومسناة عرضها ٦٠ متراً، وفي الجهة الجنوبية رواق يتقدم قاعات كبيرة لعلها كانت للتدريس، ويضم الطابق الاعلى مجموعة من الغرف تطل جميعها على الساحة ايضاً.^(٤٠)

تؤلف المقرنصات كتلاً بنائية غاية في الاتقان والجمال.^(٤١) فالاشكال الهندسية التي نراها في هذه المدرسة هي في الاساس تعتمد على النجوم والمضلعات التي تؤلف اطباقاً نجمية متطورة معقدة التركيب، ومن الاشكال التي تجلب الانتباه شكل مروحي يشبه الصليب المعقوف (سواستيكا)، فضلاً عن ذلك توجد زخارف هندسية لاتعتمد على النجوم وانما على المضلعات الهندسية.^(٤٢) أما الزخارف النباتية التي تملأ سطوح البناية والتميزة بالوضع والدقة والاتقان في الحفر وابرار التفاصيل فانّ العنصر الرئيس فيها المروحة النخيلية (البالمت)، وتظهر تارة باشكال مبسطة وتارة أخرى على جانب كبير من التعقيد وحسن التركيب ولعل اروع ما تميزت به هذه البناية هي المقرنصات المزخرفة التي تشاهد في الرواق المحيط بالصحن، فهي فضلاً عن كونها تؤدي وظيفة معمارية في رفع السقف فانها تضيف على البناء مظهراً زخرفياً بديعاً حين تتدلى من السقف بشكل قطع آجرية مختلفة الشكل والحجم، وتؤلف

في مجموعها طبقات من حنايا وكتل بنائية بارزة ذات عقود مدببة تتدرج فتنتهي في نقاط معينة تشبه قبة صغيرة مضلعة او نجمية. (٤٣)

انّ العناية المبذولة في هذه البناية وزخرفتها وتنوعها تكسبها مكانة فنية لاتضاهيها اي بناية اخرى، ففي العالم العربي والاسلامي قصور كثيرة مزينة بالزخارف البديعة المصنوعة من الآجر والحجر والخشب او مكونة من الجيش او القاشاني غير انه ليس فيها قصر بلغت فيه الزخرفة الآجرية هذه الدرجة العالية من حيث التنوع في الفروع مع البراعة في المجموع، وليس من شك في كونها تمثل الدرجة القصوى التي وصل اليها فن البناء في زخرفته الآجرية. (٤٤)

لقد اصابت هذه المدرسة نكبات كثيرة طيلة العصور الماضية، فقد اصبحت مدفنا سنة ٦٩٦هـ فدفن فيها احد ارباب الدولة، ثم جعلت بعد ذلك التاريخ رباطا او تكية، وازيل القبر الذي فيها وربما اضيف اليها شيء من الزيادة لتوافق احوال الصوفية وطريقة سكناهم، ثم ادخلت في سور القلعة منذ القرن

التاسع للهجرة في أواخر عهد القره القوينلية التركمان، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ القلعة وذلك مما ادى الى تشعيثها وتشويه محاسنها وتبديل مبسمها الجميل، حتى تداركتها مؤسسة الآثار القديمة فخلصتها من هيمنة وزارة الدفاع عليها وشرعت في تعميمها واعادة ما تخرب من قاعاتها وغرفها وزخرفتها فرجع اليها رونقها السابق وجمالها الذي لا يضاهاى. (٤٥)

مدرسة مرجان

نرى في بغداد بقايا لمدرسة مهمة هي مدرسة مرجان والمعروفة بالمدرسة المرجانية ابتناها أمين الدين مرجان والذي كان مملوكا روميا للسلطان أويس الجلائري «٧٥٥-٧٧٣ هـ / ١٣٥٦-١٣٧٤ م»، ويعد من اشهر ولاية بغداد في العهد الجلائري وأصله من بلاد الروم ، وهو منشئ هذه المدرسة والجامع المعروف بجامع مرجان، كما شيد خاننا الى جوارها اوقفه عليها ويعرف اليوم خان مرجان. (٤٦)

أسس أمين الدين مرجان هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي ووقف عليها الاوقاف الطائفة، وقد نقش بالآجر على





جدران هذه المدرسة جميع ما وقف عليها مع شروط الوقف.

ولاتزال هذه المدرسة فيها من ضروب الرياضة وبيدع الصناعة المعمارية ما جعلها محج رواد الآثار العتيقة وطلاب الفنون الجميلة، وفي هذه المدرسة دفن مرجان سنة ٧٧٤ هـ ولا يزال قبره ظاهرا الى الآن.^(٤٧)

وقد غلب اسم المسجد الجامع على هذه المدرسة، فالناس اليوم يعرفون جامع مرجان اكثر مما يعرفون مدرسة مرجان مع أنّ المدرسة كانت هي الاصل.^(٤٨)

أمّا المدرسة المرجانية التي كان فيها جامعٌ ملحقٌ بها فأنها لم يعد لها وجود ومكانها اليوم جامع تقام فيه الصلوات الخمس والجامع ويمتاز بموقعه على شارع الرشيد وبزخارف واجهته وكان احد أمناء بغداد قد اقتطع جزءاً من هذه المدرسة لاستقامة شارع الرشيد، والحق أنّ المدرسة قد انتهى دورها والباقي هو البناء الذي يعرف بجامع مرجان.^(٤٩)

ويظهر أنّ البغداديين قد جدوا بعد إنشاء المدرسة النظامية بإنشاء المدارس على نمطها

حتى صارت المدارس الكبيرة في بغداد تعد بالعشرات، وفي هذا قال ابن جبير: «والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية».^(٥٠)

وهناك العديد من المدارس التي انشئت في بغداد في العصر العباسي ومنها:

مدرسة مشهد أبي حنيفة التي أسسها أبو أسعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي الملكة السلجوقية سنة «٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م» للفقهاء الحنفية وكانت المدرسة بجوار مشهد الامام أبي حنيفة وقد باشرت التدريس في السنة نفسها التي بدأت بها المدرسة النظامية، وجرت على المدرسة اصلاحات عديدة ولا يزال مكانها مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية. والمدرسة الموفقية التي بناها موفق بن عبد الله الخاتوني خادم الخاتون الملكشاهية زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي والمتوفاة سنة «٥٣ هـ / ١١٤١ م» ومن أشهر مدرسيها علم الدين أبو زكريا يحيى بن المظفر، وقد زالت هذه المدرسة ولأثر لها في بغداد. والمدرسة التاجية المنسوبة الى تاج الملك المرزبان بن

خسرو وهي خاصة بالشافعية، وهي أيضاً لا أثر لها في بغداد^(٥١) والمدرسة الوفائية ومدرسة الخواجة مسعود بن سديد الدولة وكان الخواجة مسعود من اكابر بغداد، أسس مدرسة واسواقا غاية في الحسن وجعلها وقفا على المذاهب الاربعة على صفة المستنصرية، ووقف عليها الاوقاف الكثيرة وكان دينه القديم اليهودية، ثم اسلم وله جاه عند السلاطين، فعمر المدرسة في ايام السلطان اويس، وانتهى منها في ايام السلطان أحمد في العصر المغولي ومدرسة العاقولي جامع سراج الدين ومدرسة الوزير اسماعيل، وهذه المدارس اذا اضيفت الى بقايا المدارس القديمة استكثرنا العدد وعلمنا انّ الرغبة كانت كبيرة للعلم، والمدارس كانت مفتوحة ولم تسد في وجه الطالب.^(٥٢)

بيت الحكمة

عني الخلفاء العباسيون بالعلم والمعرفة مما جعلهم يعملون على اقتناء الكتب والسعي الى ترجمة ما كتب بغير العربية، وتشير الاخبار التاريخية أنّ الرشيد الخليفة العباسي كان مولعا بجمع الكتب وأنه يجالس العلماء والأدباء وأنّ الرشيد هو الذي أسس بيت

الحكمة في بغداد وطوره ابنه المأمون.^(٥٣) وذكر المؤرخون أنّ الرشيد لما انتصر في حروبه في مناطق بلاد الروم وجد في انقرة وعمورية كتبا قديمة فاعتنى بها وقام ابن ماسويه (ت ٢٤٣هـ) وهو من الاطباء المشهورين بترجمة تلك الكتب، وجعله الرشيد أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه.

ولما افضت الخلافة الى المأمون من سنة (١٩٨-٢١٨ هـ) وجه عنايته الى الترجمة والتأليف وترجمت له كتب الحكمة المختلفة وكان على ما يبدو كثير العناية بها ولاسيما كتب الفلسفة والمنطق وسعى المأمون بشتى الطرق للحصول على كتب الحكمة المختلفة وأرسل العلماء في سبيل ذلك فجمعوا له من تلك الكتب كل نفيس ونادر.

وتجمعت كتب كثيرة وصار هناك عدد من المترجمين والكتّاب في مكان عرف ببيت الحكمة ومن مشاهير من اشتغل في ذلك البيت يوحنا بن ماسويه وهو طبيب مشهور ومن المتضلعين في الترجمة وكان يجتمع اليه تلاميذ كثيرون.

ومن الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة في



بغداد أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي وهو من أئمة المتكلمين، عهد إليه بترجمة كتب الفارسية الى العربية، وممن كان يعمل في بيت الحكمة سهل بن هارون ومحمد بن موسى الخوارزمي وهو من أصحاب علم الهيئة منها ومن مؤلفاته كتاب الجبر والمقابلة وكان بنو موسى بن شاعر من انشط عناصر بيت الحكمة وهم ثلاثة اخوة محمد وأحمد والحسن، لازموا التعلم في بيت الحكمة وهم مولعون بعلوم الحكمة والهندسة والفلك، وكان أحمد بن موسى بن شاعر متفوقا في صناعة الحيل (الميكانيك) لا يدانيه أحد في ذلك واشتهر بكتابه الذي ألفه في الحيل وبقسمة الدائرة الى ثلاثة أقسام متساوية. وممن لازم بيت الحكمة ونقل عن كتب

خزائنه، ابن النديم المتوفى سنة « ٣٨٠ هـ » صاحب كتاب الفهرست. كانت الحرية التامة تسود بيت الحكمة، وكان من الذين عملوا فيه عدد من السريان واليهود والمجوس وغيرهم، وكانوا يؤدون شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية، ولانعلم بالضبط مكان بيت الحكمة، هل له مكان مستقل أم هو ملحق بأحد قصور الخلافة في الجانب الغربي من بغداد. وانتهت أخبار بيت الحكمة بعد دخول المغول بغداد سنة « ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م » فعبث بالكتب الغزاة والجهلة، بعد أن كان هذا المركز الحضاري مصدر اشعاع للعلوم والاداب، كما كان اداة ناجحة لنقل الحضارة القديمة والحضارة العربية الى الغرب.

الهوامش

- (١) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، الاستاذ الدكتور حسين أمين، ص ٦٠.
- (٢) ينظر: المصدر نفسه ٦٠.
- (٣) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١، ص ١٩٢.
- (٤) ينظر: بغداد مدينة السلام، الاستاذ الدكتور طه الراوي، ص ٦٢.
- (٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦٥.
- (٦) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة ص ٣٤.
- (٧) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٤.
- (٨) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٥.
- (٩) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٥.

- (١٠) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٦.
- (١١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٦.
- (١٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٦.
- (١٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٦.
- (١٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٦.
- (١٥) ينظر: بغداد مدينة السلام ص ٩٠.
- (١٦) ينظر: المصدر نفسه، ص ٩٠.
- (١٧) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٣٧.
- (١٨) ينظر: بغداد مدينة السلام ص ٦٢.
- (١٩) ينظر: ديوان معروف الرصافي، ص ٢١٣.
- (٢٠) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٣٨.
- (٢١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٨.
- (٢٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٨.
- (٢٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٢٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٢٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٢٦) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٠.
- (٢٧) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٠.
- (٢٨) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٠.
- (٢٩) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٤١.
- (٣٠) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤١.
- (٣١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٣٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٣٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٣٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦٢.
- (٣٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤١.
- (٣٦) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٢.
- (٣٧) ينظر: بغداد مدينة السلام، ص ٦٤.
- (٣٨) ينظر: تاريخ وحضارة، ص ٤٣.
- (٣٩) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٣.
- (٤٠) ينظر: تاريخ فن العمارة العراقية ص ٤٨٨.
- (٤١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٨٩.
- (٤٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٨٩.
- (٤٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٨٩-٤٩١.
- (٤٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٩١.
- (٤٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٩١.
- (٤٦) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٤٤.
- (٤٧) ينظر: بغداد مدينة السلام، ص ٥٨.
- (٤٨) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٤٤.
- (٤٩) ينظر: بغداد مدينة السلام، ص ٥٨.
- (٥٠) ينظر: بغداد مدينة السلام، ص ٦٤.
- (٥١) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة، ص ٤٣.
- (٥٢) ينظر: تاريخ فن العمارة العراقية ص ٥٣٨.
- (٥٣) ينظر: بغداد تاريخ وحضارة ص ٤٤.

المصادر والمراجع

- بغداد تاريخ وحضارة، الاستاذ الدكتور حسين أمين، منشورات المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- بغداد مدينة السلام، طه الراوي، سلسلة الكتاب للجميع، طبعة ولاسيما توزع مجاناً مع جريدة المدى، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٥.
- تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، تصنيف شريف يوسف، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢.
- شرح ديوان معروف الرصافي، شرح وتعليق الدكتور يحيى الشامي، الطبعة الاولى، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢.
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، تأليف تقى الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ)، طبعة جديدة بالوقفست، دار صادر - بيروت.



Traditional archaeological scientific schools in Baghdad Of the year

Dr. Huda Naji Obaid Sabah

Abstract

The schools that were established in Baghdad since the middle of the fifth century AH atheist tenth century, such as the regular school, which opened to teach in 459 AH / 1066 AD and the school of Abu Hanifa, which started teaching in the same year began by the regular school and established after them many schools, most notably the Mustansiriya school, Caliph al - Mustansir al - Abbasi and opened for teaching in 631 AH / 1233 AD.

It is well known that the Baghdad schools, especially the regular and Mustansiriyah schools, were attended by a large number of students from the countries of the Mashreq and Maghreb. Those who remained in Baghdad were influenced by the Baghdadi customs of food, drink and clothing, so that these Baghdadi schools influenced the morals of the international students who passed these customs and morals after they graduated from These schools also talk to their families in their own countries about Baghdad's civilization and scientific progress.



العدد الثالث والرابع
2017